الجزء الخامس – الخطبة رقم ١٣

مواقف في الفتن – ٣

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ ومن المواقف في الفتن مراعاة حال المسلمين في حال الضعف والقوة، وهذه المسألة من القواعد المقررة شرعاً، فمراعاة شأن الزمان والمكان والحال مما تتغير بحسبه الأحكام التكليفية بحسب تحقق المصالح ودرء المفاسد، فحال القوة غير حال الضعف، وحال الأمن غير حال الخوف، ولذا كانت الصلاة في حال الحرب تختلف عنها في الأمن، والمضطر ينطق بكلمة الكفر بلسانه دون قلبه "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"، والطلاق لا يقع من المكره المضطر كما يقع من غير المضطر.

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ إن معرفة القواعد الشرعية هي أساس إقامة شرع الله فهي الأحكام الكلية والتي ترجع إليها وتبنى عليها القواعد الكلية، ولذا أكثر العلماء من الكلام عنها وتنزيل الأحكام على ضوئها.

معاشر شباب الإسلام: وعوداً على بدء؛ إن معرفة حال المسلمين من ضعف أو قوة أو أمن أو خوف، والنظر في القواعد الشرعية وتنزيلها بحسب ما قرره أهل العلم من الأهمية بمكان، فمن لم يعرف هذا الأمر عموماً وهذه القاعدة المرتبطة بحال المسلمين خصوصاً، وأخذ النصوص على ظاهرها دون النظر في مناط الأحكام وتحقيقها ودون النظر في مقاصد الشريعة وأهدافها فهو ممن يسوي بين المختلفات، ويفرق بين المتماثلات، وهذا من أجهل الجهل، وكم جر الجهل بتلك القاعدة من الفساد على مجتمعات المسلمين أفراداً وجماعات.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:(وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بين المختلفين، وإنكار الجمع بينهما)[1].

وقال رحمه الله تعالى مبيناً مراعاة أحوال الناس وأزمنتهم وعدم إطلاق الأحكام بمجرد حفظها أو نقلها، قال رحمه الله تعالى:(ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم والله المستعان)[2] انتهى كلامه رحمه الله تعالى وهو يدل على عمق في فهم مقاصد الشريعة وأصولها وفروعها، فرحمه الله تعالى وأجزل مثوبته. وما أحسن ما قاله الإمام الذهبي في هذا الباب؛ قال رحمه الله:(ليس العلم بكثرة الرواية، ولكنه نور يقذفه الله في القلب).

(١) إعلام الموقعين ١٣١/١
(٢) إعلام الموقعين ٧٨/٣
(٣) إعلام الموقعين ٨٧/١

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ ومن المواقف في الفتن أن تعلموا شباب الإسلام أن الوصول إلى الحق إنما يكون بعد توفيق الله تعالى بالصدق والإخلاص في طلبه، وبالرجوع إلى الراسخين في العلم مع البحث عنه من خلال الأدلة وكلام أهل العلم عليها.

وإذا كان ذلك كذلك: فاعلموا شباب الإسلام أن الحق ليس مرهوناً بالتحمس لقول والانتصار له دون فهم وتأمّل؛ فليس كل من تحمس لأمر وأجلب عليه بخيله ورجله أن يكون على حق في دعواه، وبخاصة إذا لم يكن معروفاً بالعلم ومجالسة أهله.

معاشر شباب الإسلام: إن مجرد حفظ النصوص وسردها دون الفقه في مدلولاتها وأحوالها من الفساد والجناية على الشريعة بمكان، وهل ما فعله الخوارج من تلويث التاريخ باسم الإسلام إلا من جراء التمسك بظواهر نصوص والتحمس لها دون فهم وبصيرة، وهل ما حصل من الخروج على الأئمة وشق عصا الطاعة وهيجان السيوف إلا من جراء ذلك فالحذر الحذر معاشر المسلمين الحذر الحذر شباب الإسلام، فحفظ النصوص وسردها شيء، وفهم مدلولاتها شيء آخر، وهذا محط الركب وبيت القصيد والشاهد من القول، فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:(صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة) ثم قال رحمه الله تعالى:(وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، ويميز به بين الصحيح والفاسد والحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد، ويمده حسن القصد وتحري الحق وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى) [٣] انتهى كلامه.

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ ومن المواقف في الفتن الحذر من تنزيل النصوص الشرعية المتعلقة بالفتن والملاحم على ما يقع من النوازل والجزم بذلك دون تردد أو شك، فذلك من الرجم من الغيب ولازمه القول على الله بلا علم، ومثال ذلك أن يأتي خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون كذا وكذا من الأمور والعلامات فيندفع بعض الناس بتنزيل ذلك النص النبوي على تلك الواقعة.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى:(والذي ينبغي أن يقال به في هذا الباب أنما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من الفتن والكوائن أن ذلك يكون، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر) [١] انتهى المراد من كلامه.

(١) التذكرة ص٧٣٦

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ وإن من المواقف في الفتن أن تخص النازلة الآنية بالعناية بها وبالاهتمام بشأنها وهذا لا جدال فيه، إنما المحذور هنا أن يشتغل الجميع بقضية الساعة وينصرفوا عن غيرها إليها مما يترتب عليه إهمال قضايا كثيرة أخرى، وهذا من قلة الفقه وضعف البصيرة الناتج عن تحكيم العواطف بغير زمام شرعي، بل إن ذلك معاشر شباب الإسلام يهيئ لأهل الشر في الداخل والخارج أن يستغلوا تلك الأوضاع الراهنة التي أشغلتكم عنهم أن يستغلوها في مضاعفة بث شهواتهم وشبهاتهم مما يمكنها في نفوس كثير من الناس الذين فقدوا نصحكم وتوجيهكم بسبب انشغال جميعكم عنهم. فالحذر الحذر شباب الإسلام إياكم أن تؤخذوا على غرة، إياكم أن تخدعوا أو تصرفوا عن كيد أولئك فيخلو لهم الجو في بث عفنهم وخبثهم.

معاشر شباب الإسلام: إن من البصيرة والفقه في الدين أن يكون المرء حذراً فطناً وبالأخص في أوقات النوازل والفتن العظيمة التي تنصرف أذهان أكثر الناس أو كلهم إليها، وتذكروا شباب الإسلام قوله صلى الله عليه وسلم:"العبادة في الهرج كهجرة إلي" فقد ذكر بعض شراح الحديث أنه إنما خص وقت الفتن بزيادة الأجر على العبادة لغفلة الناس وذهولهم عن ذلك بسبب اشتغالهم بالفتنة. ا.هـ

شباب الإسلام وإذا كان ذلك كذلك فإن من أعظم أنواع العبادة في أوقات الفتن والنوازل بث الخير بين الناس من أمر بمعروف ونهي عن منكر وتبصير الناس في ما يحتاجون إليه، وعدم إهمال ذلك بدعوى الاشتغال بالنازلة.

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ ومن المواقف في الفتن الحذر من بعض الكتبة المغرضين، إياكم أن تستفزكم تلك الأقلام التي تولى زمامها طائفة من الناس جندوا أنفسهم لهدم مجتمعاتهم وبث بذور الشر والفتنة بما يكتبون، تلكم الطائفة شرذمة من الكتاب الذين بلي بهم عالمنا الإسلامي، خانوا أممهم ومجتمعاتهم وخانوا رسالة القلم وأمانته، فسخروا أقلامهم في نفث سمومهم، فجعلوا التمسك بعرى الدين وأخلاقه علامة على الإرهاب وإفساد المجتمعات والممتلكات واستغلوا كل حدث لتأكيد باطلهم وفجورهم بل من عظيم مكرهم أن يصدرون مقالاتهم ببعض الأدلة الشرعية يتمسحون بظواهرها في ترويج شبههم فيقومون بليّ أعناق النصوص وتحريف كلمها ليوافق – في زعمهم – مرادهم واستنتاجهم، ويجعلون لتلك المقالات عناوين براقة تخدع الناظر لها من أول وهلة، إياكم شباب الإسلام أولئك الكتبة ويشغلوكم عن دعوة الناس إلى الخير بقصد الدخول معهم في مهاترات كتابية فيشتهروا بين الناس بردكم عليهم وقد يكون نكرة قبل ذلك.

شباب الإسلام: إن دعت المصلحة الشرعية للرد عليهم فردوا بعلم وبصيرة، وإياكم والردود الطائشة الخالية من النظر الشرعي فإن تلك الردود إذا صدرت من بعضكم استغلها أولئك الكتبة المغرضون وشمتوا بها سمعتكم وأدبكم ومنهجكم. شاهد المقال أن الرد على أولئك من الديانة لله ومن الغيرة على محارمه، وعلى هذا فليكن الرد بعلم أو الصمت بحلم، وأما مجرد تنفيس الغيظ بلا بصيرة فقد يزيد النار استطارة والغبار عجاجاً.

معاشر المسلمين: معاشر شباب الإسلام؛ احذروا مما وقع فيه بعض الناس من الإرجاف بين الناس وإلقاء الرعب وإدخال اليأس والقنوط عليهم، وأن هذا العدو سيعود إليهم حالما ينتهي من غيرهم وأنه لا مفر من ذلك ولا مناص منه، إياكم شباب الإسلام وهذا الأسلوب في الوعظ والتحذير، فإن ذلك يزيد الناس ضعفاً إلى ضعفهم ووهناً مع وهنهم، الحذر من هذا كله، وتذكروا قول نبيكم صلى الله عليه وسلم:"من قال هلك الناس فهو أهلكُهم" وفي لفظ آخر:"فهو أهلكَهم" فعلى المعنى الأول: هو أشدهم هلاكاً لأنه زكى نفسه وتألى في قوله، وعلى المعنى الآخر: أنه هو الذي تسبب في إهلاكهم لأنه أدخل الذعر في قلوبهم وغلّب جانب التشاؤم في قلوبهم.

شباب الإسلام: ذكروا الناس بعلم وعظوهم ببصيرة، ذكروا بالتوبة من الذنب وحثوهم على المبادرة في الخير، خوفوهم من التمادي في المعاصي أيضاً حببوا الله إلى عباده، وأدخلوا روح التفاؤل عليهم، حذروهم من عدوهم وكيده وخبثه، وسترون شباب الإسلام ما يسركم ويشرح صدوركم، إياكم شباب الإسلام والغلظة على أصحاب المعاصي من إخوانكم وجيرانكم ومن بلغكم خبره ممن لا تعرفون، اسلكوا معهم ما تقتضيه النصوص الشرعية من بيان النصح وإظهار حب الخير لهم، فكم قد رأى الناس وسمعوا عن أناس أوغلوا في المعاصي والمنكرات، فقيض الله لهم ناصحاً صادقاً على بصيرة من الأمر، فحول الله به حال أولئك العصاة إلى أحسن حال، وجعلهم قدوة يقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا عبرة يعتبر منهم في الشر.

شباب الإسلام: إن أوقات النوازل من أنسب الأوقات لتذكير الناس، فقلوبهم وجلة وظنونهم قلقة، فالله الله في حسن دعوتهم، والله الله في مضاعفة بث الخير في صفوفهم "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين" أي لا أحد أحسن ممن دعا إلى الله، وللحديث بقية إن شاء الله.

اللهم يا ذا الأسماء الحسنى ويا ذا الصفات العلى يا من على عرشه استوى يا فالق الحب والنوى يا سامع النجوى ويا منتهى الشكوى، يا رب الأرباب ويا مسخر السحاب ويا هازم الأحزاب، يا رفيع الدرجات يا مجيب الدعوات يا قاضي الحاجات يا من لا تختلط عليه اللهجات

(١) التذكرة ص٧٣٦

ولا تختلف عليه الأصوات ولا تعجزه كثر ة الحاجات، يا من يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد، ندعوك ربنا باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت فنشهد ألا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، اللهم نج المستضعفين من المسلمين في العراق، اللهم ارحم ضعفهم واجبر كسرهم، اللهم احفظ عليهم دينهم، واحفظ عليهم أعراضهم، واحفظ عليهم أولادهم، واحفظ عليهم أموالهم، اللهم عليك بعدوك وعدوهم من اليهود المعتدين والنصارى المعتدين والبعثيين الطاغين، اللهم سلط الظالمين على الظالمين، اللهم اجعل بأسهم بينهم، اللهم فرق جمعهم، وفرق شملهم، واجعل الدائرة عليهم، واجعل العاقبة والظفر والفوز لضعفاء المسلمين.